الصباح

أطلّ الصباح وثوبُ الدُّجى على الأرض متعقدٌ مسبلُ
ولّتْ يدُ الصبح ما أحكمتْ يدُ الليل نسجاً وما تغزلُ
وحالتْ بهيم الدُّجى بحراً بمهمهٍ من لظًى يرحلُ
فللنور إثر الرُّبى منهلٌ يسيل ودون السما مشعلُ
تنفست الأرض عند الضحى كأنّ جناحَ الدُّجى الجندلُ
وساور عطفَ الربى هزةٌ من الطّيش واصطفقَ الجدولُ
وللغصن من مَرَحٍ رقصةٌ وللطّير قرآنُه المُنزَلُ
وللريح في الروض شكوى الحزين إذا عصف الوجد في الأضلعِ

***

تدفق بالنور رحبُ الفضاء تدفّقَ سيلٍ جرى واصطفقْ
إذا عصف الضوءُ في جانب من الأفق خلتَ حضمًا غدقْ
وعجب ما أحمرُّ من غربه حريقاً يشبُّ بجنح الغسقْ
أو البرق أومض خلف الدجى على غاربٍ من لظًى وائتلقْ
وإنْ قدحَ الفجرُ أضواءه حسبتَ إزار الظلام احترقْ
فما كنت تعلم من روعةٍ أبحرٌ طغا أم حريقٌ دفقْ
تباقطَ نظمُ جُمانِ الضّياء تساقُطَ غيثٍ بليلٍ ودقْ
فهبّتْ طيورُ الربى في الضحى تُرجّع أنشودةَ الموجعِ

***

تنبهت الأرضُ من هجعةٍ على غمرِ ضوءِ الضحى المشرقِ
فجاشت بأعطافها سورةٌ من الوجد والأمل الشيّقِ
وكادت لِمَا جاش في صدرها من الشوق تجهرُ بالمنطقِ

وتلق الأزاهر قد فتحتْ إلى النُّور مُقْلَةَ مُستوثِقِ
ترقب ما سال فوق الثرى من الفجر في لهفة المشفقِ
تنعكس بالرأس كالطرق وتغمض بالجفن كالمُحْنَقِ
وتملك أعطافها هزةٌ من الزهو والعجب المغرقِ
وموج الضحى زاخرٌ غربُه على يانع الشفق المتألقِ

***

جرى ذائبُ الفجر فوق الثرى كما لو بأرضٍ خِضَمٌّ زخرْ
إذا لمع الضوء في جدول حسبت به قبساً من شررْ
فما كنت تدري أماءٌ جرى على الأرض أم لجّةٌ من صقرْ
تلاطَمَ ذوب نضار الضُّحى تلاطُمَ سيل بقفر هدرْ
وإن راحت البُهْمُ تبغي الورود لتطفئ بالماء جمر الوحرْ
ترى البُهْمَ من حيرة أمسكتْ عن الماء مما رأت من صورْ
فلم تك تدري أماءٌ يسيل أم النور يلمع لمع الدررْ
فيكبرها الشك مما رأت وتدفعها ذلةُ المطمعِ

***

أرى الكون من جذل بالضحى تبسم عن أملٍ زاهرِ
وأشرق بالبشر ثغرُ الزمان وهشّتْ به بسمة الظافرِ
وراح الهزار على غصنه يُرَجِّع لحن الهوى الساحرِ
وماست على نغمات الهوى غصونٌ بقادمةِ طائرِ
ولكنّ قلبيَ لا يأتلي من الوجد يزفر كالثائرِ
يحن إلى عهده الغابر ويبكي على ربعه الدائرِ
ويخفق في أضلعي كالذبيح تقشعشعهُ مخلبُ الكاسرِ
إذا بارق شعَّ في مقلة تساقط من شجنٍ مدمعي

دمشق — عدنان مردم بك